عصر المأمون

تقدم الجائزة الفاضل احمد فريد رفاعي المفتش بوزارة الداخلية الى نيل شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية برسالة موضوعها « عصر المأمون » عكف على وضعها في اوقات فراغه من اعماله الادارية المختلفة مدة ١٣ سنة . والرسالة في نحو الف صفحة تقسم الى ثلاثة اقسام. الاول في العصر الاموي وما لهُ من العلاقة بالعصر العباسي عامة . والثاني يتناول عصر الانتقال من العهد الاموي الى العهد العباسي . والثالث وهو الجانب الاكبر من الرسالة يتناول عصر المأمون من جميع وجوهه السياسية والمالية والادارية والعلمية والادبية والدينية . والرسالة اقرب ان تكون سجلاً تاريخيًا منها رسالة من الرسائل التي تقدم عادة في مثل هذه الاحوال لما فيها من البحث المستفيض والجمع اشتات اقوال المؤرخين الخاصة بذلك العصر ومقارنتها بعضها ببعض ، فاعجب اساتيذ الجامعة بها ومنحوا صاحبها لقب « دكتور » من درجة فائق بعد مناقشته فيها طويلا . وقد اطلعنا على بعض ما فيها من الجمع والتحقيق والتحليل فاقتطفنا فقرتين من فصل عقدهُ المؤلف لتحليل شخصية المأمون فتكلم فيه على كرمه وسخائه وتقديره لرجال الدولة وعدله وانصافه وعفوه وعلمه وبصره بالادب وسياسته ومذهبه الديني . وقد بدأت المطبعة الاميرية بدار الكتب المصرية تطبع هذه الرسالة وستصدر قريبًا في مجلدين كبيرين

سياسة المأمون

كان المأمون سياسيًا وسياسيًا فذًّا . وليس ادل على دهائه السياسي (ديلوماطيقيته) من خطته التي لا نجد في عصره ما هو احكم منها ولا اسد مع ركونه الى مشاورة شيعته وانصاره اذا حزب به امر

ولا ادل على كياسته وكبير مهارته من تصرفاته مع سفراء اخيه الامين مما وقفنا على طرف منهُ في فصل النزاع بين الاخوين

ولقد كان سياسيا وسياسيا فذًّا في تزوجه من بوران بنت الحسن بن سهل ليكسب الحزب الفارسي وفي تزويجه علي بن موسى الرضى ابنتهُ ام حبيب ومحمد بن علي بن موسى ابنتهُ ام الفضل ليكسب الحزب العلوي رامياً بذلك كله الى ضمان تأييد الاحزاب لهُ ، عارفًا لنفسيات الجمهور وامزجة الجماعات

وكان سياسيًّا وسياسيًّا فذًّا مصيبًا لباب الصواب في قوله لأحمد بن ابي داود عن اهل بغداد «الناس على طبقات ثلاث في هذه المدينة (يعني بغداد) ظالم ومظلوم ولا ظالم ولا مظلوم فاما الظالم فليس يتوقع الاّ عفونا واما المظلوم فليس يتوقع ان ينتصف الاّ بنا ومن كان لا ظالمًا ولا مظلومًا فبيتهُ يسعهُ»

وكان سياسيًّا وسياسيًّا فذًّا في مداراته لعماله وليس ادل على ذلك من تصرفهِ مع ابراهيم بن السندي صاحب الاخبار وقد رفع اليهِ خبرًا عن حادثة بمصر فكذبهُ عبدالله ابن طاهر فعنفهُ المأمون ألم التعنيف امام ابن طاهر ثم بعث اليهِ وقال لهُ «اني آمر وأداري عمالي وعمالي مداراة الخائف. والله ما اجد الى حملهم على الحجة البيضاء سبيلاً فاعمل على حسب ما تراني اعمل، ولن لهم تسلم لك ايامك ويقضِ دينك»

وكان سياسيًّا وسياسيًّا فذًّا حينما رفع اليهِ صاحب خبره «انا اصبنا يا امير المؤمنين رقاعا فيها كلام السفهاء والسفلة، وفيها تهديد ووعيد، وبعضها متدنا مخروطة الى ان يأمر امير المؤمنين فيها بامره فكتب المأمون بخطه، هذا امرٌ ان اكبرناه كبرناه به واتسع علينا خرقهُ، فمُر اصحاب اخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة ان يمزقوها قبل ان ينظروا فيها فانهم اذا فعلوا ذلك لم يرَ لها اثر ولا عين. ففعلوا ذلك فكان الامر كما قال»

***

وتعالَ ننظر نظرة تحليلية قصيرة فيما يرويهِ لنا زيد بن علي بن الحسين قال «لما كان في العيد بعد قدوم المأمون سنة اربع ومائتين والمأمون يتغدى وعلى مائدتهِ طاهر ابن الحسين وسعيد بن سلم وحميد بن عبد الحميد، وعلى رأسهِ سعيد الخطيب وهو يقرظ ويذكر مناقبهُ ويصف سيرتهُ ومجلسهُ، اذ انهملت عينا المأمون بالدموع فرفع يدهُ عن الطعام فامسك القوم حين رأوهُ بتلك الحال حتى اذا كفَّ قال لهم: كلوا، قالوا يا امير المؤمنين وهل نسيغ طعامًا او شرابًا وسيدنا بهذا الحال. قال اما والله ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت بهِ بأحد ولكنهُ جنس من اجناس الشكر لله ولعظمتهِ وذكر نعمتهِ التي اتمها عليَّ كما اتمها على أبويَّ من قبلي، اما ترون ذلك الذي في صحن الدار يعني الفضل ابن الربيع وكانت الستور قد رفعت ووضعت الموائد للناس على مراتبهم وكان يجلس الفضل مع اصحاب الحرس. قال المأمون: وكان الفضل بن الربيع في ايام الرشيد وحالهُ حالهُ يراني بوجه اعرف فيهِ البغضاء والشنآن، وكان لهُ عندي كالذي لي عندهُ ولكني كنت اداريهِ خوفًا من سعايتهِ وحذرًا من أكاذيبهِ فكنت اذا سلمت عليهِ فرد عليَّ اظل لذلك فرحًا بهِ

مبتهجاً وكان صفوهُ الى المخلوع فحمله على ان اغراهُ بي ودعاهُ الى قتلي وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال: اما القتل فلا اقتلهُ ولكني اجعلهُ بحيث اذا قال لم يطع واذا دعا لم يجب، فكان احسن حالاتي عندهُ ان وجه مع علي بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ليقيدني بهِ وذهب عنهُ قول الله جل وعز «ومن بغي عليهِ لينصرنهُ الله» فذاك موضعهُ من الدار باخس مجالسها وادنى مراتبها. وهذا الخطيب على رأسي وكان بالامس يقف على هذا المنبر الذي بإزائي مرة وعلى المنبر الغربي اخرى، فيزعم ان المأمون ولست بالمأمون ثم موالساة بقرظني تقريظهُ المسيح ومحمداً عليهما السلام. فقال طاهر بن الحسين يا سيدنا فما عندنا فيهما وقد اباحك الله اراقة دمائهما فحقنتها بالعفو والحلم. قال فعلت ذلك لموضع العفو من الله. ثم قال المأمون مدوا ايديكم الى طعامكم فأكل واكلوا...»

***

أليس بمستساغ لنا ان نستنبط مما قدمناهُ لك، ان المأمون كان سياسياً ذهناً حذقاً في تصرفهِ مع الفضل. الم يكن للفضل مكانة عند الرشيد ونفوذ بعيد المدى في الدولة؟ ألا يجوز ان سعايةً بالمأمون واكاذيبهُ عليهِ ان لم يدارهِ قد تجد آذاناً صاغية وانها قد تجر عليهِ من الشرور ما ليس لهُ بهِ يدان؟ الم يكن خير سبيل لاتقاء شانئهِ ان يداريهُ عملاً بقول ابي الدرداء «انا لنبش في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»؟

فهل ترى سياسة احكم وبصراً بالامور احزم من تصرف المأمون ومداراتهِ. ثم انظره ما كان من مداراتهِ للفضل بن سهل كما صرح بذلك لولي عهدهِ علي بن موسى الرضى ومداراتهِ لطاهر بن الحسين قاتل اخيهِ وما كان من تصرفاتهِ مع الوفود الامينية، فإنك لا محالة تؤمن معنا ان المأمون كان سياسياً. ولعل لاطلاعهِ على ما ترجم من المؤلفات اليونانية والفارسية مع استعدادهِ الخاص وتزوعهِ الى البحوث الكلامية عامة وحبهِ للمشاورة واكتنافهِ بالرؤوس المفكرة الناضجة — اقول لهذا وامثالهِ الفضل في تكوين المأمون على ما رأيت وتخريجهِ على ما شاهدت

تقديرهُ لرجال الدولة

ولقد كان المأمون اكثر توفيقاً من اخيهِ الامين في كفاية بطانتهِ وقدرة قادتهِ وحزم مشيريهِ وبصر ولاتهِ، وكان مع ظفرهِ بالناصحين من خاصتهِ، كثير التأمل لا يجري في ملكهِ من مظاهر الضعف والقوة، حريصاً على تدبر ما يمر بهِ من مختلف الشؤون مجتهداً في تعرف الشخصيات القوية التي يرجو ان يشتد بها الملك ويتأيد بها النظام

ولقد حدثنا الطبري في تاريخه عن اسحاق بن ابراهيم ان المعتصم قال له: «يا اسحاق في قلبي امرٌ انا منكر له منذ مدة طويلة، وانما بسطتك في هذا الوقت لافشيه اليك. فقلت يا سيدي يا امير المؤمنين فانما انا عبدك وابن عبدك. قال: نظرت الى اخي المأمون وقد اصطنع اربعة انجبوا واصطنعت انا اربعة لم يفلح احد منهم. قلت ومن الذين اصطنعهم اخوك؟ قال طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت، وعبدالله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله، وانت فانت والله الذي لا يعتاض السلطان عنك ابداً، واخوك محمد بن ابراهيم واين مثل محمد. وانا فاصطنعت الافشين فقد رأيت الى ما صار امره، واشناس ففشل رأيه وايتاخ فلا شيء، ووصيف فلا مغنى فيه. فقلت يا امير المؤمنين جعلني الله فداك اجيب على امان من غضبك. قال قل. قلت يا امير المؤمنين اعزك الله نظر اخوك الى الاصول فاستعملها فانجبت فروعها واستعمل امير المؤمنين فروعاً لم تنجب اذ لا اصول لها. فقال يا اسحاق لمقاساة ما مرَّ بي في طول هذه المدة اسهل عليَّ من هذا الجواب». فكان الى هذه الخبرة بما يحتاج اليه من صفوة الرجال بصيراً بما في مملكته من الوان المكر وصنوف الرياء.

قال ابن طيفور عن ابراهيم المهدي قال: قال المأمون يوماً وفي مجلسه جماعة هاتوا من في عسكرنا ممن يطلب ما عندنا بالرياء. قال فقال كل واحد بما عنده اما ان يقول في عدو بما يقدح فيه او يقول بما يعلم انه يسر خليفته. فلما قالوا ذلك قال: ما ارى عند احد منكم ما يبلغ ارادتي، ثم انشأ يحدث عن اهل عسكره اهل الرياء حتى والله لو كان قد اقام في رجل كل واحد منهم حولاً عرمًا ما زاد على معرفته. قال: فكان مما حفظت منه في ثلب اصحابه ان قال حين ذكر اهل الرياء وما يعاملون به الناس تسبيح حميد الطوسي وصلاة قحطبة وصيام النوشجاني ووضوء المريسي وبناء مالك بن شاهي المساجد وبكاء ابراهيم بن بريهة على المنبر وجمع الحسن بن قريش اليتامى وقصص منجا وصدقة علي بن الجنيد وصلوات اسحاق بن ابراهيم في السبيل وصلاة ابي رجا الضبي وجمع علي بن هشام القصاص. قال حتى عددنا جماعة كثيرة فقال لي رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار بالله هل رأيت او سمعت بملك قط اعلم برعيته واشد تنقيراً من هذا قلت اللهم لا. فحدثت بهذا الحديث رجلاً من اصحاب الاخبار والعلم فقال وما تصنع بهذا قد شهدت رسالة الى اسحاق بن ابراهيم في الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلاً رجلاً حتى لهو بها اعلم منهم بما في منازلهم. وفي نوع هذه الاخبار من المأمون دليل على عنايته بشر

دعوة الملك الموطّد الذي يأس الخاقانون من التنكر له والخروج عليه فان ظهور الملوك بالنفاذ الى سرائر الرعية يزيدهم قوة الى قوة وسلطاناً الى سلطان

***

وانّا اذا نظرنا الى من استوزره واعلى مكانة واستخلصه لنفسه من رجالات دولته وقواد ملكه لم نتردد في الحكم بمصلحة المأمون وانهُ كان الموفق المسدد في اختيار اهل الكفايات والنبوغ

وقد كان الى جانب هذا يقدر الكفاية في خصومه . ولننظر فيما رواه الطيفوري عن الحسن بن عبد الخالق خاصاً برأي المأمون في الفضل بن الربيع وهو الذي تعلم مقدار اساءته اليه فقد قال عنهُ « كان يدبر الخطأ فيقع صواباً و يبعث بالجيش الضعيف فيقع به النصر وادبّر انا فيقع بغير ذلك فلما وقفت على البصيرة من امري وفكرت في نفسي وعملت بالاحزم في ذلك ملت الى الحزم فوردت العراق وان الفضل بن الربيع بقية الموالي أفلا تخبره بذلك عني فاني أكره ان يبلغهُ عني ما يسرّهُ »

و يؤيد صحة هذه الرواية ما قالهُ بشر السلاني من المعاصرين قال : سمعت احمد بن ابي خالد يقول كان المأمون اذا امرنا بامر فظهر من احدنا فيه تقصير يقول : اترون اني لا اعرف رجلاً يأبى لو قلدتهُ اموري كلها اقام بها. فقال بشر فقلت لاحمد بن ابي خالد يا ابا العباس من يعني قال الفضل بن الربيع

ويظهر ان خطة المأمون في تقدير الكفايات التي وُجدت قد اتبعها قادة المأمون نفسه فان الطيفوري يحدثنا انهُ لما ولي طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة اربع ومائتين وكان عليها من قبل العباس بن المسيب بن زهير كتب طاهر الى الفضل ابن الربيع : ان في رأيك البركة وفي مشورتك الصواب فان رأيت ان تختار لي رجلين لجسري . فكتب اليه بن الربيع قد وجدتهما لك وهما خيار السندي بن يحيى وعياش ابن القاسم فولاهما طاهر الجسرين

ونظن ان في هذا القدر الكفاية في اثبات تقدير المأمون ورجالات المأمون لاهل الكفاية

—٥:٥—